بنية المواجهة والإخفاق في «بنـــــات نعش» (*)

مراجعة كتب

صدوق نور الدين

١ ـ وصف الرواية:

١ ـ ١: يورد المهتمون بشعرية الرواية ثلاثة مكونات تحدّد النّظر إلى النصّ الروائي: المستوى السردي، والوصفي، والمبدأ الحواري[1]. هذه المكونات لا يخلو منها في نظري أيُّ نصّ روائي (ولربما أي نص يمتاز بصبغته الحكائيّة). إلاّ أني أرى في هذا السياق نفسه أن بعض الروايات، بالرغم من توفرها على هذه المكونات كقاعدة أساسيّة، قد يغلب فيها الاهتمام بمكوّنٍ ما على حساب بقية المكونات، إذ من النادر حصول تميز فائق بالنسبة لكافة المستويات. ففي رواية **الغبي** لـ «فتحي غانم» يهمني المستوى السرديُّ بشكل لافت، وفي **وليمة لأعشاب البحر** **وقالت ضحى**، يلفت النظر المكون الوصفي. وأما في الرواية التي نحن بصددها، وأقصد **بنات نعش**، فيتقلص المكون الوصفي نظراً لهيمنة السردي والمبدأ الحواري، عكس ما تحقّق في **الأشرعة** حيث تتكامل مجموع هذه المكونات.

إنّ إيلاءَ الأهمية للسردي في **بنات نعش** يعود في أساسه إلى الاحتفاء بالشخصيات، وإلى تبيان المصائر التي انتهت إليها، وهي مصائر تتناقض فيها المبادئ وتختلف التوجهات. فمن الطموحات الوطنية الصادقة إلى النوايا التي تخفي المكر والخيانة والوشاية

١ ـ ٢: تتألف هذه الرواية من ثلاثين فصلاً، وكل فصل يحمل رقماً لا اسماً معيناً، وذلك على غرار ما طالعنا به **الأشرعة**. إلا أن بالإمكان إحلالَ أسماءٍ للفصول بدل الترقيم المعتمد. فهذه الأسماء سيتم استيحاؤها انطلاقاً من محتوى كل فصل. وأقول بأن خلف هذه الفصول تقف الشخصيات الروائية الخيالية التي خبرنا حياتها في **الأشرعة**، فبقراءة **بنات نعش** كجزءٍ ثانٍ نستكمل تلك المعرفة التي لن تكون وافية إلاّ بموت الشخصية، والإتيان على قراءة الرباعية بأتمها. فإذا أخذنا مثلاً الترقيم المعتمد من ١ إلى ١٠، أمكن استبداله بأسماء شخصيات لها مواقعها ضمن الرواية:

١ عزيز اللباد	٢ هولو التكلي	٣ فياض العقدة	٤ عمر التكلي	٥ راغب الناصح
٦ هشام الساجي	٧ الست زهرة	٨ ياسين الحلو	٩ راغب الناصح	١٠ عزيز اللباد

يقود الاستبدال إلى ثلاث ملاحظات هي التالية:

١ ـ لا يتم إقصاء الشخصية بمجرد الحديث عنها، ضمن فصل يحمل رقماً ما، وإنما تتم العودة إليها في سياق المحكي وتنامي المسافات السردية.

٢ ـ كل شخصية تشكل وحدة سردية صغرى، إذ بإمكاننا لدى متابعة تطورات شخصية «عزيز اللباد» الاهتداء إلى رسم صورة دقيقة عنه؛ وهو الحال مع بقية الشخصيات، والمتاح منذ **الأشرعة إلى الآن**.

٣ ـ إن مجموع هذه الوحدات الصغرى هو ما يشكل الوحدة الكبرى، أي نصّ **بنات نعش**.

وقد يلاحظ القارئ صعوبة تحميل بعض الفصول أسماء محددةً، مثل ٢٣ و٢٤، لعامل تداخل العلاقات وتشابكها، لولا أنّ بإمكاني اعتبار رقم ٢٣ متابعة لأحوال «هولو التكلي»، و٢٤ لـ «سليم أفندي»، مع رصد

(*) **بنات نعش** هي الجزء الثاني من رواية **مدارات الشرق** لنبيل سليمان، صدرت عام ١٩٩٠ عن دار الحوار ـ سورية. وعن الناشر نفسه صدر الجزء الأول عام ١٩٩٠ أيضاً بعنوان **الأشرعة**، ثم صدر الجزءان الثالث (التيجان) والرابع (الشقائق) عام ١٩٩٣

(١) مجلّة **فصول**، العدد الخاصّ بـ «زمن الرواية»، الجزء الأوّل، بحث الناقد «محمد برادة» الموسوم بـ «الرواية أفقاً للشكل والخطاب المتعدّدين»، المجلّد ١١، العدد ٤، شتاء ١٩٩٣، ص ١٨.

علاقاته.. أما في ٢٥ فتتحقق معاينة الوضعية التي آل إليها «عمر التكلي».

٢ ـ في دلالة العنوان

يبدو العنوان ـ إلى حدٍّ ما ـ غير شعري شاعري. والعناوين أصلاً تتباين: بين الروح الشعرية، والتقرير، والمباشرة. إلا أنه يوحي منذ البدء بالشخصيات (الشخصيات النسائية). وإذا كان الجزء الأول **الأشرعة** بمثابة أفق مفتوح على الحياة بعد مواجهة المحتل التركي، فإن الجزء الثاني **بنات نعش**، يباينُ الأول ويفارقُهُ بحمله لدلالة الموت. فالحياة والموت إذن ثنائية تختزل صراع الوجود وتأكيد الذات وتأصيل الهوية. وليس غريباً أن يُفتح الجزء الثاني في فصله رقم (١) بطلقة الرصاص والتيه، وهو ما يُبين حدّة الصراع، واحتمالية التهجير.

والموت في **بنات نعش** يظلّ قابلاً لأكثر من معنى ومن تأويل. فقد يكون طبيعياً، حين يَطولُ إنساناً تقدّم في السن، أو يُصاب بمرض ما، أو يتعرّض لحادث وهو بَعْدُ في عز شبابه.. وقد ينتج عن مواجهة مع الآخر المحتل، وهو في النص «فرنسا»، باعتبار أن الاطار التاريخي للجزء الثاني يتحدّدُ فيما بين ١٩٢٠ و١٩٢٧؛ لكأنّ البلاد تخرج من استعمار تركي، لتدخل آخَرَ هو الفرنسي، ومستقبلاً الانجليزي مع الفرنسي، وفق ما سَنُعاينُهُ في الجزئين الأخيرين: **الشقائق والتيجان**. على أن بالإمكان ورود الموت في صيغته المجازية، حيث يغدو إحباطاً وشعوراً بالهزيمة، وعدم قدرة على مواجهة الأقوى كحقيقة، أو عن طريق التواطؤ والخيانة.

من هنا اعتبر العنوان حصيلة لِبُعدَيْنِ أساسيّين:

● الأساس الواقعي: مادامت المواجهة مع المحتلّ قد كلّفت الشامَ بقراها ومدنها الأرواحَ البشرية الكثيرة، وهو ما تجسد أيضاً في المغرب والجزائر ومصر على حد ما قال «هشام الساجي» في الفصل رقم (٣٠) من الرواية.

● الأساس الأسطوري: ويعيدنا إلى الموت/ النهاية التي آل إليها صراعُ قابيل وهابيل في الجزء الأول **الأشرعة**. إنه الصراع الذي ترك هنالك وهنا الدمعَ والبكاءَ على الوجه الغائب/ الوجوه الغائبة.

وإذا كانت **بنات نعش** إحالة على الموت، فإنه موتُ النهضة العربية، واليقظة العربية، حتى لا نقول موت الشام وحدها، مادامت هذه الأخيرة مرآة تعكس واقع الاحتلالات المباشرة وغير المباشرة، كما تعكس الكراهيات والخيانات، وبالتالي الانتفاضات الوطنية الشعبية الصادقة والرافضة للمحتل، ولأذناب التواطؤ من الانتهازيين والوصوليين. ومن خلال السابق يحقّ لي إعادة كتابة العنوان كالتالي:

أ ـ «يا بنات نعش»: وهونداء منصوب.. وكل نداء يخفي طلبَ الإقبال، والطلب هنا يتعلق بندبِ (وبكاءِ) الغائبين بالموت أو بالمنفى أو بالتهجير قسراً.

ب ـ «وقائع بنات نعش» أو «هذه وقائع بنات نعش»: وهو عنوان يدعو القارئَ لتفكيكه عن طريق قراءة الرواية وفهمها وتفسيرها، وتأويل ما يستحق التأويل من معانيها، معاني صراع الشام مع المحتل بحثاً عن الاستقلال.

أخلص إلى القول بأنه إذا كان العنوان يوحي بالموت، فإن الفصل رقم ١ ـ وكما ذكرت ـ عبّر عن قتل «عزيز اللباد» لـ «عبود بك الرشدة». وأما الفصل الأخير رقم ٣٠، فكشف عن إطلاق رصاصة من طرف «نافع الصوان» أصابت عين «الأمير دشاش»، وهو ما يُحيلُ على مواجهة مستمرة، وعن انغلاق للنص لا يكاد يحيل على أفق.

٣ ـ تقنية العرض

ألمعنا فيما سقناه سالفاً إلى أنّ الروائي ركّز في **بنات نعش** على الشخصيات. وهذا التركيز اقتضى منه اعتمادَ تقنية العرض الشامل لأحوالها وظروفها، وخاصة الشخصيات الأساسية التي جمعتها «قشلة الحميدية» كمكان مارست فيه واجبَ الدفاع الوطني ضد المحتل (الأتراك)، و«الرقة» كمنفى هَجَّرَهَا إليه المستعمر بعد مواجهاتها الظافرة لفرنسا.. وقد غاب عنها:

> « اسماعيل معلا، وفياض العقدة،
> واحد مع الفرنسيين، وواحد ضدهم،
> كما باتوا جميعاً يعلمون. »
> (ص ٥٥٦).

ليحل محل الغائِبَيْن «حسين فندي» و«بديع الطارة»، وكأني بهما يعودان لممارسة فاعلية الحضور بدلاً عن الغائبَيْنِ.. (*).

ومادمنا بصدد الجزء الثاني من هذه الرباعية فإني اعتبر العرضَ بمثابة عرضِ استكمال لمختلف الإضاءات التي انتهت إلى القارئ سابقاً. ذلك أنّ هذا الاستكمال يتعلّق بالمصائر التي عرفتها الشخصيات: عائلياً، ومهنياً، وفي جانب العلاقات الانسانية، وسياسياً.. ويصطبغ الاستكمالُ بطابع التناوب على مستوى الحضور؛ فبعض هذه الشخصيات يظل أكثر فاعلية في مقابل التدني الذي تعرفه أخرى.

ويرجع هذا إلى قوة الشخصية وسلطتها داخل النص الروائي، وإلى خصوصية الفضاء المؤثر في/ وعلى هذه الشخصية. فمثلاً نجد: «عزيز اللباد» و«راغب الناصح» و«ياسين الحلو» و«فياض العقدة» و«اسماعيل معلا» أكثر حضوراً وفاعلية ضمن العالم الروائي لـ **بنات نعش** إذا ما قورن الحضورُ بالحديث عن «الست زهرة» و«هشام الساجي». لذلك فمركز الثقل الحدثي يقع على الشخصيات الخمس بما لها من قرابات وطموحات تنشُدُ دعمها والتأسيس لها.

ومن ثم نلفي العرض يركز على فضاء القرية بشكل واسع، في مقابل

(*) تمّت الإشارة ضمن الرواية إلى لقاء سابق لهذا تحقّق في بيت أبي عاطف: «أمام بيت أبي عاطف التقوا، كأنّهم على عشب القشلة الحميديّة منذ سنوات، ينتظرون الإجازة...» (ص ٣٧١).

المدينة. .(*). . فالقرية هي الفضاء الذي وجدتْ فيه هذه الشخصيّاتُ وغيرُها ذواتَها، وذلك بالبحث عن العمل سواء لدى «الأغاوات» أو «الأمراء» أو مُلّاك الأراضي. وبالرغم من الشروط المجحفة التي فُرضت على كل فلاح فإن التشبّث بالأرض ظَلَّ قائماً، حتى ولو أدّى الأمرُ إلى التهجير من أرض إلى أخرى، على نحو ما وقع لـ«عزيز اللباد» و«ياسين الحلو» و«راغب الناصح» وغيرهم. . . علماً بأن بعض الشخصيات دعّمت صَفّ المحتلّ الوافد أو المقيم داخل البلد، بينما حارَبتْ أخرى إلى جانب الثوار.

وليس بالغريب أن تجابه شخصيات الأمس مَنْ شاركها الدفاعَ ضد المحتل التركي (مثلاً: صراع ياسين الحلو مع راغب الناصح، وعزيز اللباد مع فياض العقدة). .

وكما يمسّ العرض فضاءَ العمل والاستقرار، فإن ذكر الأرض يرتبط بالمرأة. فكل شخصية من هذه الشخصيات جسّدت التّوقَ إلى إنشاء أسرة؛ وهو ما حدث عن قناعة واختيار، أو بالفرض والإجبار والإكراه: (اختطاف امرأة/ مراودة أخرى/ فرض الخيانة على ثالثة).

لذلك فانّ الارتباط يماثل الحنين إلى الأم، وصورة هذه الأخيرة في الرواية أبانتها المرأة، فكما تحبل هذه وتنجب، فإن الأرض تمنح بذورها وانتاجاتها. .

على أن كل حَبَل من لدن امرأة بمثابة مؤشر على ثورة في مكان ما من هذا الريف الواسع، وهذا يوضح سياسياً عدم الرضى بالسائد والكائن، الأمر الذي يحتم المجابهة والنضال، علماً بأن إنجابات معينة جاءت ميتة، وهو ما يحيل على الهزائم التي مُنِيَ بها الثوار، سواء من لدن المحتل، أو من الوصوليين الذين يبنون أحلامهم على الخيانة.

لقد كانت العلاقات الانسانية بين هذه الشخصيات، وغيرها، مُؤسسة على تواصل إيجابيّ وسلبيّ:

إيجابي: في حالة الرسوّ على الموقف النضالي الوطني الشعبي ضد كل أساليب الاحتلال، وأقصد الموقف الموحّد بحثاً عن استقلال سورية.

سلبي: حين يقع اختلالٌ في الموقف:

١ ـ بالخيانة،

٢ ـ بالاستغلال،

٣ ـ بفرض التهجير والنفي،

وأنتهي مما جئت على ذكره إلى اعتبار تقنية العرض شاملة، مادامت تستهدف بناء الشخصية البناءَ الشاملَ المتكاملَ، انطلاقاً من وحدات حكائية صغرى، نحو وحدة كبرى هي رواية «بنات نعش». .

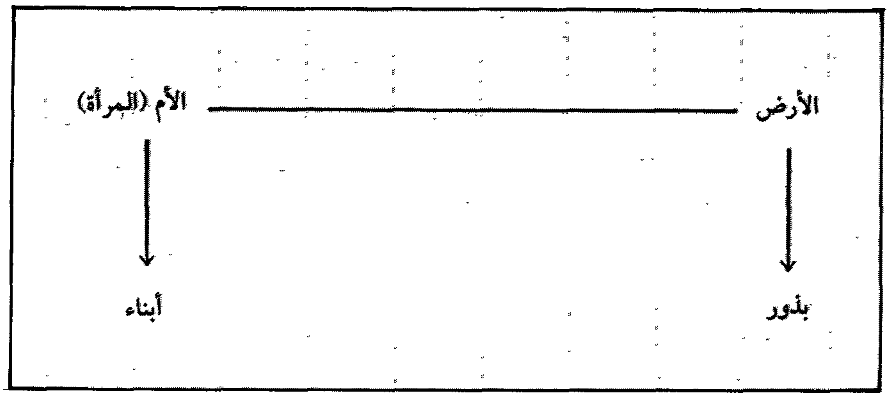

٤ ـ بنية المواجهة والإخفاق:

يمكن اعتبار بنية المواجهة والإخفاق، الإطار الذي يختزل رواية «بنات نعش» كجزء ثانٍ من رباعية «مدارات الشرق»، خاصة وأن مدار هذه البنية هو واقع الاحتلال ومناهضته بحثاً عن الاستقلال، إذا ما ألمعنا لكون الاحتلال لا يتجسد انطلاقاً من العناصر الدخيلة وحدها، بل نجده يمتدّ ليشمل الكائنات المنتمية إلى الأصل، والحاملة لنوايا الخيانة والانتهازيّة والوصوليّة.

وحين تتحقّق الإحاطة بهذه البنية في شموليّتها، يمكن تفريعُها إلى بنيات صُغرى ضدّيّة هي التالية:

١ ـ القرية ≠ المدينة. .

٢ ـ الشرق ≠ الغرب. .

٣ ـ الدفاع ≠ التواطؤ والخيانة. .

٤ ـ الحب ≠ الكراهية. .

وللتوّ نلاحظ بأنّ هذه البنيات الصغرى يترتّب فيها الثاني عن الأول:

١ ـ القرية ≠ المدينة. .

٢ ـ الشرق ≠ الغرب. .

وفي الوقت ذاته الرابع عن الثالث:

٣ ـ الدفاع ≠ التواطؤ والخيانة. .

٤ ـ الحب ≠ الكراهية. .

لتصبح البنية الصغرى الثانية والرابعة، وكأنّها متناسلة من سابقتها، أو لكأنّها توسّع من أفقها نحو المزيد من الإضاءة.

٤ ـ ١: القرية ≠ المدينة:

القرية:

القرية في «بنات نعش» صورة عن الأصل. ذلك أنّ ما يفصح عنه هذا الأخير هو العلاقة الرابطة فيما بين الإنسان (الفلاّح) والأرض، وهي علاقة يطبعها اختلال مادامت تتسم بالتغيُّر وعدم الثبات. فالفلاّح يتوق إلى الاستفادة من الأرض بحثاً عن مستوى من العيش الكريم لا يهفو إلى تجاوزه. . إلاّ أنّ هذه الاستفادة، وحسب «بنات نعش»، يطبعها الاستغلال، باعتبار أنّ الرؤية إلى القروي (فلاّح، راعٍ، أو خادم) رؤية تأسر هذا الإنسان في وضعيّة العبد الخادم. . وأمّا مالك الأرض وفق شرعيّة قانونيّة أو بدونها

(*) سنعاين فضاء المدينة ضمن بنية التضادّ: قرية ≠ مدينة.

فهو السيِّد المالك، والمتحكِّم في منتوجات هذه الأرض، وفي ثروتها الحيوانيّة، ومن ثمّ، فإنَّ ما ينتجُهُ العبد لن يستفيد منه إلاّ النزر اليسير، في مقابل تحصيلات السيِّد الواسعة، ومن قطاع شاسع من القرويّين.

«.. وفي خدمة الأمير ما لا يحصى من الفلاّحين كما من البدو، من العرب كما من الأكراد، من التركمان كما من الأرمن، من المسلمين كما من المسيحيّين، حتّى اليزيديّون منهم من يخدم الأمير، ومن الفرنسيّين معه ضابط يرافقه مثل ظلّه، وطبيب يعنى بصحّته، وليس في القوم من لا يشرِّفه أن يخدم الأمير..» (ص ١٤١)

«ـ قلت لك: بست يده حتّى يقبل ذبيحة واحدة هذه السنة مادام الموسم يا حسرة.. غضب وحلف بالله أن يزيد الذبائح ذبيحة مادام لساني يطول. غضب الله عليّ وبربرت. حلف بالله: ذبيحة جديدة، وزاد: كلّ ما فتحت فمك زدت ذبيحة. غضب الله عليّ وقلت: هذا ظلم، والظلم لا يرضاه الله ولا عبيده. وقف وقال: لا ترجع إلى النصبة.. وخلّ غيري يشغّلك ويؤويك..» (ص ١٩٢).

إنَّ القرية في ضوء هذا تجلو عن النظام الإقطاعي الذي تتحكَّم فيه الآليات السلطويّة بشكلٍ أو آخر، مادام الرّفض يُجَابَهُ بنزع الأرض أو النفي أو التهجير. لاسيّما وأنّ الإقطاعي يرى أنّ اليد العاملة في وفرتها تسمح له بسنِّ القوانين التي تلائم وضعيّته وتخدم مصالحه الذاتيّة..

«.. الطير في السماء هنا ملك للشيخ..» (ص ١٣١).

«ـ كلّ ابن آدم منّا عليه لشيخ من الشيوخ ذبيحة أو عشر.. ماذا أحكي لك؟..» (ص ٩١).

«ـ أنا راحل يا هند. لقمتنا ليست هنا. لن أعود حتّى يوفّقني الله بمكان نقدر أن نعيش فيه. ماذا أوصيك؟ الولد يا هند.. لسانك، أنا أعرفه. إيّاكِ أن تذكري صادق آغا أو عبده بكلمة. ادْعي لي حتّى لا تطول غيبتي.

وغادرها دون وداع» (ص ١٢٨).

تبدو صورة السيِّد المالك والإقطاعي واحدة، من «الأشرعة» إلى «بنات نعش».. فهو: الآغا، الفرنسي، الأمير أو الشيخ.. وبالتالي الوكلاء الذين يُنتدبون مِنْ لدن هؤلاء، مِنْ أبناء البلد، وهذا ما يفصح عن كون محتلّ، دخيلاً كان أو من أبناء البلد، يحمل ذات المميِّزات والصفات التسلُّطيّة المتمثِّلة في الكسب اللاّمشروع، وفي مضاعفة الثروة بالقهر والتعذيب وقمع الاحتجاجات والتظاهرات. لذلك يجد القرويّ ذاتَهُ أمام نظام من التعفُّن يصعب إبدالُهُ وتغييره، نظام دَرَجَ على منواله حكّام لا يحسنون إلى اليوم سوى فنّ الاستبداد:

«.. ضجَّ الرعاة بظلم فيّاض، واكتفى الشيخ غشوان أوّل مرّة بأن يأمر فيّاض بالتعقُّل، أمّا في المرّة الثانية فقد شتمه، هدّده بالضرب والطرد..» (ص ٢٤).

«فتِّح أذنيك جيّداً: البيادر صرت تعرفها. أراك من الشروق للغروب تدور فيها وأنت تهزّ بيديك. الآن البيادر عامرة، وناكر الجميل ما جزاؤه؟ يوم الشدّة يزحف على يديه ورجليه: آغا يا آغا، ويوم الفرج يلعب بذيله. هه: احكِ حتّى أسمعك..» (ص ١٢٥).

فالقرية حسب الرواية هي:

١ ـ نموذج لنظام إقطاعي متسلِّط.

٢ ـ تجسيد لاستبداد شبه موروث.

٣ ـ كشف لمحنة القرية مهد الثورات الشعبيّة ضدّ كلّ أصناف الاحتلال.

المدينة

إذا كانت القرية موقعاً فلاّحيّاً خالصاً يرسم ارتباط الكائن بالأرض في قوّة لا حدود لها، فإنَّ المدينة تضادّ هذا الموقع من منطلق كونها تجسِّد تحوُّلاً عميقاً في مستويين: مستوى الوعي، ومستوى العمل. فوعي ساكن المدينة يتميَّز بالرّغبة في التوسُّع الذاتيّ والتّجاريّ. من حيث الذاتُ، نلفي هذا التوق إلى الاستقرار في البيت، وإنْ أمكن التوسُّع فيه وامتلاكُهُ ـ لكأنَّ الإنسان يؤسِّس لفرض سلطة قاهرة على المكان، بعيداً عن أن يشركه فيه غيره، في الوقت الذي تخضع فيه الأرض الفلاّحيّة، وبالرّغم من ثبوتيّة ملكيّتها إلى هذه الشراكة الاجتماعيّة التي تؤهِّل الكلّ للاستفادة منها. فالمدينة هي التفكير في الاستقرار، وفي فرض السلطة على المكان، لذلك فإنه كلّما انتهى إليها الإنسان، شرع في البحث عن مأوى، قبل أن يداهمه الليل ويحتمي بالفراغ والتشرُّد:

«.. تقلَّب يفكِّر في أنَّ عليه أن يبحث عن مسكن آخر أرحب وأنظف أيضاً، فإنْ لم يتوفَّر له استئجار غرفة أو غرفتين كذلك، فسوف يكون عليه أن يشتري بيتاً بكامله..» (ص ٣٥).

إنَّ الحلول بالمدينة والاستقرار فيها، بمثابة دعوة للتعامل مع أشيائها، أكاد أقول مع هذه «المفردات» المحيلة عليها، وهي في تكون الغالب مدعاة للدهشة والتساؤل وردّ الفعل، علماً بأنَّ هذه «المفردات» تظلّ وافدة من خارج، وتدعو للتأقلم معها، وبالتالي إلى إلباسها اللباس المحلّي والخاصّ. لذلك لا يتآلف القرويّ مع هذه «المفردات» بالسرعة ذاتها، حتّى إنَّ النطق بها يعسر في بعض الأحيان، وهو ما يجعل القروي يزاوج بين لغة بدويّة تجلو عن وعيه، وأخرى مدينيّة تكاد تكون راقية.

إنَّها أشياء العمل، واللباس والبيت، وجميعها تجعل من المدينة مكان الربح والكسب، بعيداً عن النيّات المغرضة(*).

«.. كان عزيز يصغي بانتباه شديد، يحدِّق في القبّعة الناشزة وسط الطاولة، يتابع اختلاج جفني الأستاذ فخري، شفتيه الرقيقتين، حركات

(*) لنا عودة إلى الأشياء ودلالاتها في مبحث مستقلّ.

أصابعه المتشابكة في حضنه.. ذقنه الملساء، أزرار سترته اللاّمعة، وفي غفلة منه دخل وليف..» (ص ٢٨٠).

«.. فيمّم إلى المدينة، حيث العيش مهما عسر يظلّ أهون من أرض الشيوخ أو حمى الخواجة فيّاض والأمير ياسين.. وكانت فاطمة تصغي بشوق يخالطه البله، ثمّ خالطه الإنكار..» (ص ٣٧٥).

والعمل على أساس أنّ المدينة تظلّ مفتوحة على مجموعة من العلاقات الإنسانيّة التي تتمّ الاستفادة منها في جانبها الرمزي أو الاقتصادي الصرف. فالجانب الرّمزي يتجسّد في القرابات والصداقات التي يظلّ الدّكان والمقهى أماكنها المفتوحة، والبيت كمكان مغلق. أمّا الاقتصادي فينعكس في بُعده التجاري. واللاّفت أنّ المظهر الاقتصادي يكاد يطغى في «بنات نعش»، فتنظيم صفقات البيع والشراء، وقوافل التجارة (يكاد) يتحقّق في كليته من المدينة إلى المدينة، ويتحوّل من الحبوب المرتبطة بالوسط القروي إلى القنّب والحشيش وغيرهما:

«.. أمّا في الجولان فسوف ينظّم قافلتين للعمل بين الشام وفلسطين: واحدة تتمركز في عين فيت ويتولاّها بيت السّعد، وواحدة في العال ويتولاّها بيت النّاصح، وقد أعدّ لحدود الإنكليز والفرنسيّين عدّتها. ليست غايته أن يؤجّر القافلة لفلان أو علاّن من التجّار، بل أن يمسك بالخيوط الجديدة من أوّلها إلى آخرها.» (ص ٤٣).

«.. كان دكّان سليم أفندي شراعته الكبرى على الشام، كما كان أقرب إلى الشّوارع والمقاهي. والنّاس أقرب إلى الدنيا، يتفرّج ويتنصّت ويطلق لسانه أحياناً. أمّا بعد الدكّان فقد غدا بلا شراعة، أو أنّ شراعته صغرت وتشتّت، وهو يحسب العكس. ولذلك كلّف طه قبل أن يغادر بيروت بأن يحضر له كلّ صباح أو مساء من الآن فصاعداً جريدة ما» (ص ٦٧).

بيد أنّ ما يترتّب عن العمل في المدينة هو نوعيّة التعامل والعلاقة مع العامل، وهي نوعيّة منبثقة عن وعي تمّ اكتسابه بالمعرفة، وسوف ينطلق لاحقاً إلى القرية.. فالتعامل يتّسم بالوضوح التّام، وبالتّعاون والتّسامح، بحكم كون الرّاهن يقتضي ذلك حتّى تتشكّل وحدة المواجهة ضدّ المحتلّ الفرنسي الذي قسّم المدن إلى دول، منصّباً عليها رؤساء. وهكذا نجد الحوارات تتعلّق بـ: الحزب، النقابة، الثورة، أو البلاشفة.. وهي مصطلحات لم تكن لتُتداول في القرى والبوادي إلاّ في فترة مغرقة في البُعد:

«.. ما ظلّ يحيّره كان بخاصّة الأستاذ فخري القجّي الذي يتردّد لماماً على المصبنة، لا يغلظ لعامل، حتّى ولو كان مقصراً. بل إنّه كما أكّد وليف لم يطرد عاملاً، حتّى ولو ضبطه متلاعباً، أو مختلساً لبعض ألواح الصابون. وحين فعل، مرّة أو مرّتين، ظلّ منقبضاً لأيّام..» (ص ٢٨٥)

«.. فرنسا وحّدت دولة حلب مع دولة دمشق، وعيّنت القائد الذي خان رئيساً..» (ص ٢٧٨).

والملاحظ أنّ الهجرة من القرية إلى المدينة أو العكس، لم تكن متفاقمة.. أقول كانت نسبيّة لباعث مؤدّاه كونها ظلّت حبيسة الوسط القروي: من القرية إلى القرية، وليس من القرية إلى المدينة، أو من المدينة إلى القرية..

لذلك فإن المدينة في «بنات نعش» هي بمثابة:

١ ـ الصورة الحضاريّة والوعي المنتج،

٢ ـ اللّبنة الأساس لتشكيل الدولة المدنيّة المستقلّة،

٣ ـ المظهر الحقيقي للعمل الفردي، وإنشاء الطبقة العاملة.

٤ ـ ٢: الشرق ≠ الغرب:

أورد «هشام الساجلي» في الفصل الأخير (٣٠) من «بنات نعش» وهو يعتزم إصدار جريدة، ما يلي:

«يعمل الحزب على تحقيق السيادة القوميّة ووحدة البلاد السوريّة بحدودها الطبيعيّة، ويضمن الحريّات الشخصيّة، ويحمي الصناعات الوطنيّة، ويُنمّي الموارد الاقتصاديّة، ويدرّب الشعب على الديموقراطيّة» (ص ٥٦٥).

هذه الفقرة بالذّات، تختزل مشروع البرنامج السياسي المرغوب تطبيقه، وهو برنامج عبّر عنه «د. عبدالرزاق عيد» بالتالي:

«إنّ القارئ سيكون مندهشاً عندما يرى أنّ البرنامج السياسي والصياغات الدستوريّة التي يعيد فيها هشام الساجلي تقليب النّظر مازالت مشروعاً سياسيّاً ودستوريّاً يبحث عن معناه الفعلي في الواقع حتّى اللّحظة الرّاهنة»(٢).

يتضح من الفقرتين أن صورة الحاضر لا تختلف في شيء عن الماضي، بحكم أن المطالب التي تمّ النضالُ من أجلها ضد مختلف الاحتلالات لم يتمّ الظفرُ بها. ومن ناحية ثانية، يتبين أن أوهام الاستقلالات في معظم البلدان العربية قد أبانت عن صورة، بل صور، لمحتل يحمل السحنة العربية، دون أن يفكر على الاطلاق فيما هو عربي.

من هنا أعتبر أن بنية التضاد الجامعة بين الشرق/ الغرب، هي بنية هدفها التأسيسُ لنهضة عربية تجعل العرب يقفون في مواجهة الغرب فكراً وسياسة ومدنية، لولا أن هذه النهضة تلبث حلماً مجهضاً في الحالات التي يجلو فيها الواقع عن النوايا العربية التي تقف عقبة كأداء حيال هذه النهضة، إلى جانب الأحابيل الاستعمارية الرامية إلى تمزيق وحدة الصفّ العربي. وحتى لا أمضي بعيداً لأتساءل: كيف جسدت «بنات نعش» رؤيتها إلى الشرق؟ الشرق في «بنات نعش» لا يمكن الحديث عنه إلا باستدعاء الغرب. فهو كمحتلّ فرض هيمنته العسكرية

---

(٢) كتاب: الرواية والتاريخ، دراسة في مدارات الشرق: عبد الرزاق عيد ومحمد جمال باروت، دار الحوار، سورية، ط ١، ١٩٩١، ص ٦٣.

والإيديولوجية، سيظل الإرث الذي تحملُه الذاكرةُ العربيةُ دون نسيانه على الإطلاق.. ومنْ ثَمَّ كان سؤال الهوية الأفقَ الذي انفتح عليه حلم وأملِ الشرق والشرقيين، ولن يتحقق هذا فعلاً إلا بالتصدّي للاحتلالات مهما كان نوعها ودرجات فاعليتها. هذا التصدّي الذي لن يتطلب سوى المقاومة الدائمة لتأكيد الحضور وتكريس الاستقلال.

ومادام الأمر يتعلق بوضع عربي، لا بسورية وحدها، فإن المقاومة تكتسي صبغة الشمولية:

> «.. لا قوة في الأرض تقدر على أن تمنحنا السعادة إلا زنودنا.. لا قوة ما دمنا عاجزين ـ هشام الساجلي» (ص/ ٩٦) «ـ الشرق للشرقيين.. هذا شعارنا يا سليم أفندي. وفرنسا لا يجوز أن تتركوها تهنأ يوماً في الشام، كما أننا بحاجة إلى مساعدتكم..» .» (ص/ ٥٠٣).

> «تقول: إن هذا الوضع لا يعم سورية وحدها، فعلى امتداد المسافة كلها،
> من شانغهاي إلى أغادير، هبت آسيا وإفريقيا ضد سيطرة أوروبا» (ص/ ٥٧٠).

إن معنى الاستقلال الحرية، ومظاهر الحرية تفترض الخروج من دوائر التبعية مهما كانت أشكالها. لذلك فإن الشرق مدعوّ لتوطيد اقتصاده المحليّ، وذلك بإرساء فلاحة محلية، وصناعة كذلك.. وبالتالي توقيف عجلة الاستيراد التي تستهدف أصلاً التبعية والتفقير، وهما معاً وجهان للمستعمر. من ثم تولدت فكرة تأسيس الشركات، وتوسيع هذا التأسيس نحو الدفع بالمستوى الاقتصادي إلى أمدائه البعيدة، دون أن يغيب عن بالنا كون بعض «الأشياء» ستظل الفاقة إليها دائمة، غير أن البعضَ لا يمكن اعتبارُهُ كلاً.

> «ـ ذكرتني الآن بما كان يشغلك يوم رجعنا من برلين. أنت دائماً ضد الاستيراد. ما اتفقنا يوماً على هذا. بالطبع الاستيراد ليس واحداً، ولكن أنت مرة تفكر في شركات زراعية، ولا يعجبك شغلي وشغل غيري في الزراعة، نسيت؟ واليوم أراك تفكر في صناعات أصحابك البسيطة، أو ـ حتى ـ في معمل الزجاج، ولا يعجبك شغلك في الدكان ولا في التجارة كلها..»..» (ص/ ٥٠٦).
> «ـ الشام يا سادة تستورد الحليب والجبن والأحذية، وما شابه، هل نضحك أم نبكي؟ (ص/ ٥٠٧)

والواقع أن نهضة الشرق لن تنحصر في الهوية والاقتصاد، وإنما تترسخ بدءاً من تحصيل العلم. وكل علم هو دعوة للتفكير: التفكير في الحاضر والمستقبل. لذلك فإن ما يَحسُنُ الانكبابُ عليه هو العلمُ بهدفِ مقارعة المعرفة بالمعرفة من جهة، ومن أخرى بهدف القضاء على سياسات التجهيل الرامية إلى قتل «قلق السؤال». ولكي تستكمل المعرفة أبعادها فإنها غير مطالبة بالخنق والضيق، وإنما بالانفتاح على الكوني والعالمي..

إن أقسى مظهر للاحتلال هو معرفة ثقافة الآخر، ومناقشته فيها.

> «أفاض الباشا في النهضة التي تساعد الدول المتحضرة على بعثها في بلاد العرب وفي غيرها، وإن كانت تعيقها أو تصادرها في الآن نفسه، كما أفاض في الحاجة إلى العلم، قبل أن يزوّق المستقبل القريب الذي تستقل فيه الشام، ويحض الرؤوس التي برمت به على أن تفكر وتبدأ سعيها الحثيث من أجل ذلك، ابتداء من هذا الاجتماع..» (ص/ ٥٢٣) «محاولة هشام هذه جعلته يردد في سره، وأمام الباشا وسواه، أن هذه البلاد هي حقاً باب الغرب إلى الشرق وباب الشرق إلى الغرب، وأن أية قوة لا تستطيع أن تحول بين هؤلاء البشر المتعطشين والأفكار الجديدة..» (ص/ ٥٦٦)

تبدو بنية الشرق/ الغرب وكأنها متناسلة أساساً من سابقتها: القرية/ المدينة. فالشرق أشبه بالقرية في تخلّفه، فيما الغرب في تقدّمه يماثل المدينَةَ..

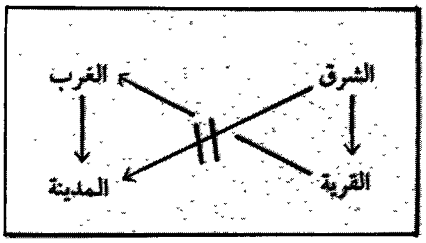

فنهضة الشرق على ضوء ما تضمنته «بنات نعش» لن تتمّ إلا:
١ ـ بإقرار هويّة تامّة،
٢ ـ بخلق اقتصاد مستقل،
٣ ـ وهو الأساس: توطيد العلم والمعرفة.

إن هذه المطالب ـ وكما سلف ـ ماتزال قائمة إلى اليوم.

٤ ـ ٣: الدفاع ≠ التواطؤ والخيانة:

في هذه البنية الثالثة الصغرى، يعكس الدفاع مقاومة الاحتلال ومجابهته، بهدف استعادة الأرض واستقلال الوطن، وذلك كيما يتأتى بناء دولة حرة تفخر بسيادتها، وبمظاهرها الحضارية. على أن من مواصفات الدفاع الرفض، وهو يتمثّل في استبعاد المواطن للأساليب الاستعمارية سواء في تقسيم الأرض، أو في محاولة استغلالها. بيد أن الرفض قد يستدعي التوحّد والتكتّل الجماعي بعيداً عن حمل السلاح، كما أنه يلزم بذلك إذا ما تحوّل إلى مواجهة. وهذه تقتضي حمل البندقية للدفاع عنِ الأرض أوّلاً، وعنِ الذات ثانياً، مع التوق إلى تأسيس الجماعات الثورية المناهضة والعمل في صفوفها.

ومن الممكن أن يتبلور الرفض في نمط توعية فكرية وسياسية ترتكز على فضح مضاعفات الاحتلال، وتبيان الطرق والكيفيّات التي في ضوئها تتحرك النوايا الاستعمارية، مع الجنوح إلى غرس بوادر العلم والمعرفة حتى لا تكون المجابهة بالبندقية وحدها، وإنما بالفكر والمعرفة أيضاً. وأعتقد بأن «الجريدة» لعبت دورها في تدعيم المسار التوعوي. وقد وقف خلف هذا الدور الأستاذ «فخري» و«وليف» و«عزيز» غداة انتقالِه من القرية للعمل في مصبنة

«فخري» بالمدينة، ونجد من بين شخصيات الدفاع ضد الاحتلال:

«عـزيـز اللبـاد»، «اسمـاعيـل معـلا»، «حمادي الحسون»، «وليف كيروز»، «حسين فندي» الأستاذ «فخري» وغير هؤلاء.

في مقابل الدفاع: التواطؤ والخيانة. ويتجسّدان في الوقوف إلى جانب المحتل: الوطني والأجنبي، وذلك بمساعدته في أداء مهام الاحتلال، والاستفادة من الظرف رغبة في تحقيق مكاسب مادية وميول وصولية، علماً بأن التواطؤ والخيانة يتمّان بالوشاية، بالتعنيف، ثم بالقمع والتعذيب والإجبار على خدمة المحتل والتطوع في صفوفه، حتى ولو كان الأمر على حساب الوطن والمواطن، ثم ختاماً التآمر باسم الوطن والوطنية، لبناء دولة تابعة للآخر.

من بين الشخصيات الخائنة والمتواطئة نجد:

«ياسين الحلو»، «فياض العقدة»، «راغب الناصح»، و«عمر التكلي».. وهي في خيانتها وتواطئها تؤيد «الفَرَنْسَة»، أو تناصر «الأمير دشاش»، ونمثل للدفاع بالتالي:

«.. ولكن هل يكون الرصاص قد قلب عبّود بك على الأرض دون أن يصرعه؟ أقلق السؤال عزيزاً، وضاعف من سرعته، يخشى أن يكون زلم عبّود بك قد أعلموا فرنسا نفسها بفعلته.» ص/ ١٢)

«.. فمن يقدر أن يواجه الفرنسيين اليوم لن يعجزه أن يقف في يوم آخر في وجه رستم آغا. البلاد لم تخل من الرجال. ولرستم آغا ومن معه يوم أغبر مهما تأخّر فهو آتٍ..» (ص/ ١١٢)

«ـ ماذا تفعل هنا؟ خذ حرمتك والحق بأهلها. اليوم ترحل يا ياسين. مفهوم؟» (ص/ ١١٤)

وعن الخيانة والتواطؤ النماذج التالية:

«.. ضج الرعاة بظلم فياض، واكتفى الشيخ غشوان أول مرة بأن يأمر فياض بالتعقل، أما في المرة الثانية فقد شتمه. وهدده بالضرب والطرد.» (ص/ ٢٤)

«. سوف أجعل الناس يقولون. غوطة التكلي، بل غوطة ابن التكلي، غوطة عمر التكلي..» (ص/ ٣٧)

«..افتح أذنيك جيداً: البيادر صرت تعرفها أراك من الشروق للغروب تدور فيها وأنت تهز بيديك. الآن البيادر عامرة، وناكر الجميل ما جزاؤه؟ يوم الشدة يزحف على يديه ورجليه: آغا يا آغا، ويوم الفرج يلعب بذيله» (ص/ ١٢٥)

إن الدفاع من خلال ما جئنا عليه يتّسم ببعده الوطني، وهو في الوقت نفسه نوع من الحب المعادل لعشق المرأة، وللأم على السواء، في حين أنَّ التواطؤ والخيانة تحطيم للبعد الوطني ولقداسة الحب.

٤ ـ ٤: الحب ≠ الكراهية:

إذا كان البيت يعكس دلالة الاستقرار، فإن ما يتولد عن هذا الأخير هو حضور الرغبة في الحياة ـ وبالطبع لن تكتمل الرغبة إلا بحضور المرأة، خاصة وأنها تجسّد قيم الحب والاشتهاء، وأعتقد بأن من أسمى معاني الحب الفناء في عشقه وبالتالي نشدان الخلود. لكن، حين تؤول الرغبات إلى استحالة، فالاستمرار عبر الخلف يظل مطلب الانسان مادامت كل حياة يعقبها موت، أقول مادام الاستمرار يُعتبر من المستحيلات. من هنا حفلت «بنات نعش» بمظاهر الحب، وبالتوق إلى الإنجاب لتخليد الانسان بعد موتِهِ وانطفائِهِ.

فالمرأة في «بنات نعش» تجمع بين كونها المرأة الطاهرة، وتلك المتسمة بالكراهية والخيانة، خاصة وأن ما تقدم عليه من ممارسات يجلو عن ذلك. وأعتقد بأن سمات المرأة الطاهرة كشفت عنها المرأة في القرية.. هذه التي تقود الانسان للتضحية بنفسه من أجلها، متى ما كانت الآصرة قوية والرغبة مشتعلة، إذا ما ألمعنا لكون المنع والحرمان (ولم لا: القتل؟) من بواعث الدفاع في وجه هذا المنع والحرمان والقتل، لكأن في المرأة حقاً يجب الحصول عليه مهما كانت العواقب التي ستطول حياة الإنسان فيما بعد.

«ـ رحمها الله يا عزيز. لا تحزن. الموت حق. اطلب لها الرحمة والمغفرة. إن شاء الله سأزوجك خيراً منها اختر ما تشاء من الخادمات؟ وهي لك.» (ص/ ١٠)

«. لقد حرمه إذن عبود بك الرشدة من أول امرأة أحب. حرمه من أول امرأة تحبه. بل إنه داس على رقبته، معس فؤاده معساً.» (ص ١٠).

على أن من سمات هذه الظّاهرة، الارتياح إلى جسدها، الجسد الذي يجد فيه الآخر اكتمال جسده، باعتبار أن الانسان يشعر بالنقص على الدوام، ويحس بأن شغل هذا النقص لن يتمّ إلا بالذوبان في جسد الآخر. وفي أحيان يغدو حب المرأة استدعاء لصورة الأم الغائبة، أو البعيدة، حيث يُنتظر استمطار حنانها قصد الركون إليه، ومعانقة طفولة ثانية: طفولة اللعب، الحرية والبوح بالأسرار الخفية..

«ورأى أن يكافئ نفسه على ما تستحق، لكنه افتقد السيجارة والعرق والياسمين، فأمر بالشواء، ثم أمر هنداً أن تتعرى، وأمر نفسه أن يتعرى، وأن يضاجع في هند تلك الأم وبنتيها معاً، وعلى الرغم من أن هنداً كانت ذاهلة، إلا أنها مالبثت أن أخذت تتلوى وتشهق، تتوسل إليه وتعضّه، ولا يكاد يهمد حتى تحييه من جديد..» (ص/ ١٤٥)

«ـ يحنو عليها ويود لو يفضي بما بات يشغله من أمر هذا المكان يوماً إثر يوم، بالأحرى صباحاً بعد صباح، وخاصة أنها كانت قد دللت من قبل مراراً على أن لديها ما يجهله أو يخلط فيه.» (ص/ ٢٠٠)..

ولعل من أنقى صور الطهارة التي أبانت عنها المرأة القروية، رفضها للمراودة، وللممارسات غير الشرعية، مهما كانت الإغراءات، وبالتالي مهما كان موقع الآخر

بالنسبة للأنثى. فالشرف يظل حاضراً لا يمكن أن تطوله يد الإنسان، لترتسم المسافات البعيدة بين المرغوب فيه وما يجب، بين المباح وما يظلّ ممنوعاً، بين ما تتوق إليه النفس وتسكن إليه، وبين المرفوض بشكل قطعي. وهذا ما جسدته مثلاً «أم عثمان»:

««ـ حاول معي بالحرام وحاول بالحلال. وكما قال لك. غيره حاول »» (ص/ ٢٤٢)

««ـ لا يا عزيز ـ روح دورعلى بنت باكر. لا تتزوج أرملة، أنت تليق بأحلى البنات، أما أم عثمان فليس لها غير أن تندب حظها وتتمنى لك الخير.»» (ص/ ٢٦٠)

««ـ ابعد عن شعيلة يا راغب ـ كرمى لله أبعد ـ»» (ص/ ٢٦٩)

في المقابل، نلفي المرأة التي تُثير فينا كرهها لعامل الدنس الذي تأتيه، والخيانة التي تُقدمُ عليها ـ وعلى الدوام فالمبادرُ شخصُ الرجل الحامل للرغبات الشهوية بحثاً عن تحطيم الشرف والقداسة أيضاً، وهو ما يمكن أن تؤديه الأنثى كذلك كمهمّة، في حالة الرؤية إلى الآخر من ذات الزاوية، أو مما هو أبعد.

وأرى أن «عمر التكلي» و«راغب الناصح» قد جسّدا النموذج الأبشع لـ «الشرقي» الحامل خلف ظهره شبقه ونزوعاته الجنسية (وهو ما أبان عنه «هشام الساجلي» بكيفية أخرى):

«.. بنت قطيش، وهو الاسم الّذي عرفت به سارة منذ طفولتها، استأثرت بعمر، واستأثر بها منذ شهور..» (ص ٤٩).

« . وأم نور الدّين أتت إليه بالماء والطست ليغسل وجهه، ثمّ أتت بالبابونج وجلست قبالته، كأنّها السّت زهرة نفسها» (ص ٦٠).

«.. لم يَرْعَوِ راغب. قضى مع أم ناصح ليلة واحدة، لم يستطع أن يضاجعها فحردت ـ وفي الصّباح عجل إلى عليّ فيت، وانعطف بالحصان نحو بئر عجم، يدور حول تخوم الأشجار والذّرة، يتحاشى أن يصادف أحداً، حتّى فاجأته البندقية من تحت أكمة الزّعرور، وصاح به ذلك الصّوت.

هذه المرّة لن أرميك من فوق حصانك. ابعد عن هذه الأرض واتق الله انظر كيف تصون عرضك» (ص ٨١).

«تشهت المستر بيجيت والخواجة ثابت وسليم أفندي وأطياف ذكور كثيرين يشرعون أعضاءهم» (ص ١٠٧).

فهذه المرأة المدنسة تجلو عنها المدينة بوضوح، دون أن تفوتنا الإشارة لحالات قروية، علماً بأنّ «بنات نعش» لا تستحضر شخص المرأة إلاّ بذكر الرّجل، وفي غيابه (قد) يتمّ طي صفحتها كنموذج (فاطمة غداة موت إسماعيل معلا)، وعدم الرّجوع للحديث عنها.

على أنّ الشّخصية النّسائيّة المفارقة في «بنات نعش» تظلّ «نجوم الصّوان» الّتي تجسّد المرأة / الرّمز داخل الرّواية، خاصة وأنّها تختلف عن النّموذج الأوّل والثّاني، وتختار المجابهة والتّصدي للمحتلّ (المحلي والأجنبي)، بحثاً عن الهوية الأصلية والضّائعة بغياب إخوتها الّذين يقاتلون بهدف استعادة الأرض، والكرامة الإنسانيّة. إنّها الوطن الرّافض للاحتلال، وغير القابل للتبعية، وليست رصاصات «نافع الصّوان» إلاّ الدّليل القاطع على أنّ الاستقلال لا يتحقّق بالتواطؤ، أو اقتطاع أجزاء من الأرض، وإنّما وُفق استرداد الهوية كاملة. يرى «محمّد جمال باروت»:

«.. إنّها «الشّام» الفلاحيّة الثّائرة الّتي قاتلت الأتراك وكبار الملاّك «الفيصليين» والفرنسيين»[٣]

«.. بيت الصّوان ما خلقوا ليخدموا الآخرين، لولا فيّاض رحمه الله وسامحه. » (ص ٥٤٢).

«سأل الصّوت:

ـ ماذا كتبت عن نافع الصّوان وجماعته؟

بهت هشام وسأل بعد لأي:

ـ ومن يكون هذا؟ من هي جماعته؟

ـ المهاجرون؟

ـ ما ذكرهم أحد لي قبلك..» (ص ٥٧٨)

«.. كانت المرأة تنادي إخوتها المقتولين والضّائعين..» (ص ٥٧٨).

ختاماً أورد جدولاً يوجز بعض نماذج الشّخصيات النّسائيّة السّالف ذكرها، علماً بأنّ المرأة في «بنات نعش» تستكمل الحركية الاجتماعيّة المتفاعلة داخل الرّواية:

المرأة الطّاهرة	المرأة/ الخيانة	المرأة/ المُواجهة
فاطمة / إسماعيل معلا هند / ياسين/ الحلو سرو أم عثمان	خديجة التكلي الستّ زهرة أم نور الدين سارة	نجوم الصّوان

(٣) كتاب الرّواية والتّاريخ مرجع سابق ـ محمّد جمال باروت ـ دار الحوار، دمشق، ص ١١٧.

واللاَّفتُ أنّ الصّورة الّتي حملتها / تحملها «نجوم الصّوان»، هي عينُهَا الهيئة الّتي تمظهرت عليها وبها شخصية «عزيز اللّباد» الملحميّة الأسطوريّة، وقد جمع الرّوائي بينهما لحظة المطالبة بكشف واقع الإخوة الّذين ابتلعهم الغياب، وهو ذاته ما حصل في التّلابق بين «عزيز» و«أم عثمان»، حيث ترتب عن الرّفض التّهجير والنّفي.

أشرنا فيما مضى إلى أنّ بنية المواجهة والإخفاق تؤطر نصّ «بنات نعش». وحتّى نُلمّ بهذه البنية بشكل موسّع جنحنا إلى تجزيئها إلى بُنى صغرى متضادة، وفي الآن ذاته متضامّة، على اعتبار أنّ اللاّحق يتناسلُ من السّابق، فهذه البنى الصّغرى تؤلّف في كلّيتها بنية المواجهة والإخفاق، وهي الرّواية موضوع دراستنا هذه، إذا ما أسّسنا رؤيتنا إلى الرّواية وَفق المقياس الدّال على أنّ كلّ ... كان يُصاب بإخفاق وإحباط. فنشدان الاستقلال تمظهر عبر عدّة أشكال للمقاومة، في حين اتخذ الإخفاق تجليات أخرى (قد) يصحّ عَدُّها أقوى بكثير من أشكال المقاومة، وهي الحال الّتي لا تنفرد بها الشّام، بل تمتدّ لتحيط بالواقع العربي في شموليته (عبرنا عن هذا أكثر من مرّة).

فهذه البنية الكبرى تعكس الرّغبات الّتي أفصحت عنها مجموع شخصيات الرّواية، كما أبانت عنِ النّوايا المحمولة من لدن هذه الشّخصيات، وقد انسربت تجلياتها في تحركاتها سواء إلى صفّ العنصر المقاوِم، أو المحتلّ للبلاد. ومن ثمّ جاءت الرّواية ضمنّ وفقّ جمالياتها الدّالة، التحوّلات السّياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة للشام، وهي التحوّلات الّتي احتكمت إلى تسلسل زمني اختار له الرّوائي (١٩١٨ ـ ١٩٢٧)، وضمنه تحقّق قراءة «الأشرعة» و«بنات نعش»، ولاحقاً «التّيجان» و«الشّقائق».

/ نحو تصنيف لشخصيات الرّواية:

لن يشمل التّصنيف مجموع شخصيات الرّواية، وإنّما سيكتفي بالإحاطة بعينة منها، من منطلق كون هذه العينة رئيسة تضيء بقية الشّخصيات المتفاعلة على امتداد النّصّ الرّوائي. وليس التّصنيف سوى كشف وبيان للوظائف والمهمات المؤداة من طرف هذه الشّخصيات، حيث لا يمكن الوقوف ضمن النّصّ (قصّة / رواية) على شخصيةٍ ما لا وظيفة تؤديها.

من ثمّ، لي أنّ الامس عينة هذه الشّخصيات، من رواية ما تأتي على أدائه والقيام به.

١ / المقاومة:

وأمثّل لها بـ «عزيز اللّباد» الّذي أبانت «بنات نعش» عن شخصيته المقاومة بإطلاق الرّصاص، والانتهاء إلى المنفى من لدن «الفَرَنْسَة». فمن مميزات هذه الشخصية عدم الاستقرار، بحكم التّهجير الّذي تعرضت له غير مرة، ثمّ الرّفض لأساليب الخيانة بحثاً عن استعادة الأرض وبناء الوطن.

٢ / الوصوليّة:

يجلو عنها «عمر التكلي».. هذه الشّخصية ذات النّزوع البورجوازي والرّوح الشّبقية، لا هَمَّ لها سوى الامتلاك على حساب النّضال والمقاومة، حتّى ولو تمّ ذلك بالخيانة والوشاية. وقد لاقى عقابه على يد الثّوار، وبالرغم من ذلك ظلّ محافظاً على ميوله.

٣ / الماجنة:

وتبين عنها «خديجة التكلي» الّتي لم يتوقع طرف ما ضمن الرّواية / خارج الرّواية خيانتها، وهي الّتي أطلّت من وسط محافظ يضاد سلوكاتها.

٤ / الوطنية:

وتتجسّد مثلاً في شخصية «الباشا شكيم» أو «سليم أفندي»، وهي الشّخصية الّتي احتلّت موقعاً ضمن الحيّز الرّوائي، وذلك بحضور بُعدها السّياسي، وبرفضها للأساليب الاستعماريّة، وفي الآنِ ذاتِه رغبتها في إدارة شؤون الدّولة وتسيير أمورها.

٥ / المثقفة:

واستدل عليها بـ «هشام السّاجلي».. وهي الشّخصية الصّحافية والمثقفة الّتي تجمع بين الحلم في تأسيس المجتمع المدني الدّيمقراطي، والرّوح «اللّذية» المستكشفة عبر البحث عن التّراث الجنسي، وهو ذاته ما تمظهر في الحوار الّذي جمع «هشام» و«جانيت» في الفصل الأخير (٣٠) من «بنات نعش»..

يبقى لنا القولُ بأنّ الوظائف الّتي أقدمت عليها هذه الشّخصيات، ومن خلفها الرّاوي العليم والمحيط بالكلّ، مُنيت بالإخفاق، وهو ما دعا / يدعو إلى معاودة البحث عن الذّات، عن الهوية، واستقلال الوطن، خاصة وأنّ أبواب الاحتلال ماتزال مشرعة.

المغرب